أسس النهضة في فكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

The Foundations of Renaissance in the Thought of Cheikh Mohammed Bachir El-Ibrahimi

د. محمد بن علي

المركز الجامعي أحمد زبانة – غليزان (الجزائر)

تاريخ الإرسال:2020/02/28 **تاريخ القبول**: 2020/03/16

ملخص:

يأتي هذا المقال ليسلط الضوء على الواقع المأزوم الذي نتخبط فيه اليوم، في ظل التراجع الرهيب الذي تعرفه منظوماتنا القيمية على جميع الأصعدة، وفي ظلّ الهدر المستمر للفرص، تحت مسميات مختلفة، واليوم يحقّ لنا إعادة طرح سؤال الأزمة من جديد، سؤال يرمي إلى النظر في تراكمات الأزمة من جهة، وإعادة الاعتبار لمفهوم فقه الأزمة وتعقيل التعامل معها من جهة أخرى، ولهذا ينبغي الالتفات لقاماتنا الفكرية وعلى رأسها الشيخ الإبراهيمي من أجل الاسترشاد برؤيته للمعضلة والحل. وفق مقاربة تحليلية نقدية.

الكلمات المفاتيحة: النهضة، الإسلام، العالم الاسلامي، الأزمة، الاستعمار، الحرية.

Abstract :

This research comes to shed light on the distressing reality in which we flounder today, in light of the terrible decline that our value systems know at all levels, and in light of the constant waste of opportunities, under various names, and today we have the right to re-ask the question of the crisis again, a question aimed at looking at the accumulations of the crisis, on the one hand, and the re-consideration of the concept of the jurisprudence of the crisis, and the reasoning of dealing with it, on the other hand, and therefore we should pay attention to our intellectual powers, headed by Cheikh Mohammed Bachir El-Ibrahimi, in order to be guided by his vision towards the dilemma and solution, according to a critical analytical approach.

***keywords*:** Renaissance, Islam, Islamic World, crisis, colonization freedom.

مدخل:

أصبح مصطلح الخطاب النهضوي مصطلحا مألوفا، سواء بين المتخصصين أو من خلال عناوين المؤتمرات والندوات التي تعقد هنا وهناك.كما أنّ الدعوة إلى بلورة خطاب نهضوي يساير المرحلة الحالية بمختلف تمفصلاتها أصبحت هي الأخرى ملازمة لكل التساؤلات التي يثيرها المصطلح. ودون الخوض في ملابسات ظهور الخطاب النهضوي العربي وتصدره للنقاشات. يكاد الجميع يتفق على أنّ الخطاب النهضوي عندنا أصبح في حاجة ماسة لتجديد ينطلق من المرجعية الأصيلة للأمة من جهة، ويكون قادرا على مواجهة التحديات التي تواجهه من جهة ثانية.

الواقع الذي يجب الاعتراف به هو أننا مهددون من كلّ جهة، سواء من طرف الأيادي العابثة، التي تريد أن تعيث فسادا في مقومات الأمة، وهنا يصبح الوعي بخطر الخطابات الدينية الوافدة أولوية الأولويات. إن نحن أردنا أن نحصّن هويتنا ومرجعيتنا الدينية، وسط عالم تقاربت مسافاته بشكل جعلنا في مواجهة مباشرة مع كلّ المشارب الفكرية والإيديولوجية.

كما لا يمكن أن نغفل من جانب آخر ما تمثله الأيادي الغربية (وعلى رأسها الاستعمار السابق) العابثة من خطر. فهذا الخصم لم يدّخر جهدا منذ سنوات الاستعمار في العمل على طمس معالم هويتنا الدينية والقذف بأبناء الشعب في غياهب الجهل والدجل والشعوذة. واليوم ومع التطورات التي يعرفها العالم المتقدّم، والذي يزداد غطرسة ونهما لالتهام ما بقي من مقومات الشعوب العربية الإسلامية التي زجّ بها في موجات عنف داخلي يكاد يقضي على ملامح وجودها.

انطلاقا من هذا المدخل التوضيحي سوف نعمل على الحفر في أسئلة خطاب النهضة عند الإبراهيمي. أسئلة تنوعت قوالبها وتوحدت أهدافها ومراميها، لا لشيء سوى لأنها تصدّت لسؤال النهضة والخروج من مأزق الوضع المأزوم، وضع لم يسلم منه مجال دون آخر.

إشكالية البحث: كيف بلور الشيخ البشير الإبراهيمي خطابه النهضوي؟ وكيف يمكن اليوم استثمار هذا الخطاب؟

- **جذور أزمة العالم الإسلامي:**

1– العوامل الذاتية:

يُشَرح الإبراهيمي الأسباب الحقيقة للأزمة التي يتخبط فيها العالم الإسلامي، حيث يرصد أسباب الفرقة والاختلاف مبينا الآثار السلبية التي انجرّت على تلك الفرقة، وفق مقاربة تاريخية لتمفصلات المشهد، الذي لم يتغير كثير، بل ازداد تأزما، ولهذا نجده يعود بنا إلى بواكير الخلاف في الحضارة الإسلامية، حيث كانت"الإمامة هي أساسُ الخلاف بين العلماء، وقد خاض فيها الخائضون إلى حجج شتى، وكثر فيها القيل والقال، وبدت بين الخائضين فيها العداوة والبغضاء، وجرت بين طالبيها الحروبُ والقتال، وبسببها أبيحت الأموال والدماء إلى يومنا هذا"[1].

من هنا تصبح العودة إلى نصوص فترة التأسيس ضرورية، "ويصبح الوعي التاريخي بها ضرورة لازمة، نظرا لتداخل المبادئ والوسائل والأشخاص في هذه المرحلة. فالغالب أنّ مرحلة التأسيس تتحوّل في أذهان الأجيال التالية إلى "مرحلة تقديس"، ليس تقديسا للمبادئ فقط، بل تقديسا لوسائل تلك المرحلة ورجالها، فكلّ ما صدر عن ذلك الجيل أخذ صبغة الأساس – صراحة أو ضمنا – عند من تلاهم من أجيال، فلصوابهم قيمته التأسيسية ولخطئهم خطره الخاص، نظرا لميل الناس إلى استسهال تقليد الأكابر في كلّ شيء"[2].

يقول البشير الإبراهيمي معلّقا على هذه البدايات التأسيسية: "وأول ما نشأ في المجتمع الإسلامي من جراثيم التفرق في الدين، الكلام في القدر والخوض في الصفات، وقارن ذلك حدوث الخلاف في الخلافة: هل هي شعبة من الدين تفتقر إلى تنصيص من الشارع، أو هي مصلحة دنيوية ترجع إلى اختيار أهل الرأي من الأمة... وفي هذا المعترك نبتت جرثومة التعصب الخبيثة"[3]. "وتوفرت الدواعي لظهور المذاهب الفقهية والمذاهب الكلامية والمذاهب الصوفية في أزمنة متقاربة، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية والهندية أثر قوي في تعدد المذاهب الكلامية والصوفية، بما أتت به الأولى من بحث في الإلهيات على الطريقة العقلية الصرفة، وبما غذّت به المتكلمين من الأنظار المختلفة وأمدتهم به من طرائق

الجدل وقوانينه، وهذا هو مبدأ التفرق الحقيقي في الدين، لأنّ المتكلمين يزعمون أنّ علومهم هي أساس الإسلام، والصوفية يقولون إن علومهم هي لباب الشريعة وحقيقتها"[4].

واللافت للانتباه هو أن الإبراهيمي لا يرجع سبب تأزم أوضاع المسلمين إلى ظهور المذاهب الفقهية وإنما يرجعه إلى نزعة الغلو في المذهب لحد تكفير المخالف، حيث يقول: "أما المذاهب الفقهية فحدوثها ضروري وطبيعي ما دامت السنة لم تجمع، وبعد جمعها لم تكن وافية بالتنصيص على الوقائع ... وإنما الذي نعده في أسباب تفرق المسلمين هو هذه العصبية العمياء التي حدثت بعدهم للمذاهب ... وقد طغت شرور العصبية للمذاهب الفقهية في جميع الأقطار الإسلامية، وكان لها أسوأ الأثر في تفريق كلمة المسلمين"[5].

رغم ما في الافتراق من مضار أحكمت قبضتها بعد ذلك على صيرورة العالم الإسلامي، حيث لم يعد للاجتماع من وجود، ولم يبقى للأمة من جامع يجمعها سوى أنّها توصف بأنّها أمة إسلاميه، عكس ما أصبحت عليه الحضارة المنافسة لها (وهي هنا الحضارة الغربية بما امتلكته من قوة وتوحيد للصفوف)، حيث استطاعت أن تجمع صفوفها وتشق طريقها لترويض الطبيعة، ولأنّ "فوائد الاجتماع هي ثمراته الناتجة عنه، وثمراته هي ما ترون من أعمال تعجز القوة الفردية عن إتمامها، وما ترونه من مصانع تخرج المعجزات، وما ترونه من تقريب الأقطار وإخضاع البحار، وما ترونه من استخراج مواهب الأرض التي لا يستقل الفرد بإخراج جزء منها ولو جمع مواهبه، وما ترونه من تسلط جبري على قوى الطبيعة واستخدامها بكلّ سهولة"[6].

أ– نقد خطاب النهضة العربية:

لم يكتف الشيخ الإبراهيمي بنقد الأسباب التاريخية، التي أدت إلى حالة الأزمة التي عايشها آنذاك وإنما صبّ نقده أيضا على تهافت خطابات النهضة العربية، التي تزامن ظهورها مع الموجات الاستعمارية –خاصة حملة نابليون على مصر– فغالبا ما يؤرخ للحركة الفكرية العربية الحديثة بالقرن 19، ففي هذا القرن بدأ العالم العربي– بداية من مصر– التفتح على أسباب الحضارة والتعرف على وسائل التقدّم الإنساني، ويعقد مقارنات بين

مكانته وما وصل إليه غيره في أوروبا، لقد كان هذا الاتصال بين الشرق والغرب، بداية لعمليات من القلق والمعاناة، قلق عبّر عنه قاسم أمين قائلا: "كل من تعلم من المصريين وساعده الحظ على أن يتعرّف أحوال أمته وحاجاتها ويحيط بها، إنّ الأمة المصرية دخلت اليوم في دور خطير، بل في أخطر دور من تاريخها ... لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر، مثل هذا الزمن. فإن تمدن الأمم الغربية يتقدّم بسرعة البخار والكهرباء حتى فاض من منبعه إلى جميع أنحاء المعمورة"[7].

لقد أدرك الإبراهيمي أنّ مفكري العالم الإسلامي لم يستطيعوا، إعطاء مضمون محدّد لمشروعهم وبقي خطابهم يستقي محدداته المنشودة لا من الواقع وحركته وآفاق تغييره أو اتجاه تطوره، بل من الإحساس بالفارق، إحساس الوعي العربي بالمسافة بين واقع الانحطاط في الحياة المعاصرة، وواقع التقدّم في العالم الأوروبي، وعليه لم يستطع هذا الخطاب التقدّم ولو خطوة واحدة على جميع الأصعدة، وظلّ يتأرجح بين سلطة النموذجين العربي الإسلامي والأوروبي المعاصر. فمفردات"الوعي، اليقظة، النهضة" التي ترددت على ألسنة المفكرين العرب، لا يرى فيها الإبراهيمي إلاّ نوعا من المراوغة والخداع ويدعو قائلا: "لنخرج من النفاق الغرار الخادع إلى الصدق والصراحة، فنقول: الموجود من تلك الأشياء الثلاثة هو الأسماء مفسّرة في الغالب بغير معانيها، مصوّرة بغير صورها الحقيقية، وإذا فسد التصوّر فسد التصوير، لأنّنا ما زلنا نبني تصوراتنا على أُسس من الأماني"[8].

إنّنا – فيما يرى الإبراهيمي – مازلنا لم نصح بعد من نومنا الذي استمر لقرون نتيجة لتضافر العديد من العوامل، التي حجبت عنا رؤية طريق الخروج من أزمة التخلّف، فلا نكاد "ننفلت من قبضة منوّم؛ إلا لنقع في قبضة منوّم ... الأولون هم رجال الدين الضالون الذين فرّقوه إلى مذاهب وطوائف، والآخرون رجال السياسة الغاشون الذين بدّلوا المشرب الواحد فجعلوه مشارب"[9].

ب– نقد الدور السلبي لعلماء الدين:

ينتقد الشيخ الإبراهيمي تلك النظرة السطحية التي صار إليها العلماء، من خلال ابتعادهم عن قضايا أمتهم وانهماكهم في الأمور الجانبية" أمّا معرض الأمة الزاخر بالمفاسد

والموبقات، فشيء لا شأن للعلم به، وأما هداية الأمة وضلالها فأمرهما – في نظره – موكول إلى الله الذي وكّله إلى العلماء ... وبهذه السيرة التي كانوا عليها خرجت قيادة الأمة من أيديهم إلى أيدٍ لا تحسن قيادة الأمة.

ثم يضيف واصفا أحوال العلماء الذين ارتضوا الارتماء في أحضان السلطة الحاكمة والانشغال عن مصالح أمتهم قائلا: "إنّ خروج قيادة الأمة الإسلامية من أيدي العلماء هو أكبر الأسباب فيما وصلت إليه من انحطاط، وهو أمر قديم العهد، ونحن نعلم علم القطع أنّ علماءنا في القرون الوسطى كانوا وليس بأيديهم من أمر الأمة شيء، وأهم جهات الاتصال بينهم وبين الأمة وهي التدريس والإمامة والفتوى والقضاء؛ كانت تعطى لهم من أيدي الأمراء المستبدّين تفضلًا لا استحقاقًا، فإذا خطب الخطيب منهم فيجوز أن ينسى شيئًا أو أشياء مما يهم المسلمين ولكنه لا ينسى– أبدًا– الدعاء لأمير نصّبه، أو الترحم على واقف يعيش من فضل جرايته"[10].

ولم تكن منتجاتهم الفكرية ومؤلفاتهم الفقهية تعكس أحوال أمتهم كونها افتقدت لعنصر مراعاة الأحوال العامة، ولم يُبْنَ الكثير منها على معايشة واقع الناس. "وقد يبنون الأحكام في المعاملات على ما تقتضيه أنظارهم الخاصة، ويولّدُون من كلام من قَبْلهم اقتضاءات ووجوهًا من التأويل، فإذا خرجوا إلى السوق وجدوا اليد المصرّفة لأزمة الأمة غير يدهم، والقانون الذي تساس به الأمة تابعًا لأهواء الأمراء لا لما سَطَّروه وأتعبوا أنفسهم في تدوينه، ووجدوا سيف الاستبداد يأمر وينهى، ووجدوا أنفسهم في غمار العامة مسيرين بتلك اليد وبتلك الأهواء وبذلك السيف"[11].

والنتيجة أن الكثير من المؤلفات لا تتطابق و مصالح الناس، لأنها لم تبنَ على رعاية تلك المصالح التي هي أساس حكمة التشريع، ولا سبب لذلك إلّا خروج القيادة الفعلية من أيدي العلماء.

"ولا ذنب للعامّة في هذا كله وإنما الذنب ذنب العلماء الذين غفلوا أولًا وسكتوا آخرًا حتى خرج الأمر من أيديهم، وقد أدركنا من بقايا هذا السكوت المخزي أن شيخ الطريق

الجاهل الأمّي يجلس في مجالس الوعظ والتذكير، فيذكر مريديه بغير ما أنزل الله ويُجلِسُ بجنبه عالمًا مأجورًا على السكوت ليتّخذ من سكوته حجة وعونًا على إضلال العامة، ولعمري إن هذه شر نهاية وصل إليها المجتمع الإسلامي في كثير من أوطانه"[12].

2– العوامل الموضوعية:

في استعراضه للعوامل الموضوعية التي جعلت الأزمة تتفاقم وتشتدّ وتتعدد مظاهرها يسلط الإبراهيمي الضوء على الدور البارز الذي لعبته السياسة الاستعمارية في كلّ الأوطان التي احتلتها، والتي غلّفتها بغلاف إنساني حتى تستطيع تمرير رسائلها وسط العامة، فجاءت بالمعلّم والطبيب والراهب، ووظفتهم لخدمة مشاريعها" فلم يبق المعلم معلمًا علميًّا، ولا الطبيب طبيبًا إنسانيًّا، ولا الراهب أبًا روحيًا، وإنما جاءوا في ركاب الاستعمار ليخدموه ويثبتوا أركانه[13].

لقد كانت الجزائر قبل دخول الاستعمار أمة ذات مقوّمات مستمدة من دينها ولسانها، وذات مقومات من ماضيها وحاضرها، وكانت أرقى عقلًا، وأسمى روحًا، وأوفر علمًا، وأعلى فكرًا ... بدليل أن هذه الأمة كان لها حظ من حكم نفسها بنفسها لم تصل إليه تلك[14]. ولكن الاستعمار أراد لها غير ذلك، وجاءت فرنسا التي تدّعي أنها "حاملة لواء الحرية وحادية الأمم إليها، وإنّها حامية حقوق الإنسان، وإنّها زعيمة التحرير في العالم وإنّها أستاذة المثل العليا للإنسانية، وإنّها منارة العدل التي يهتدي بها المظلومون، يبدئون القول في ذلك ويعيدونه وينشرونه في العالم، ويكتبونه في كلّ سطر من صحفهم ومؤلفاتهم ... وهنا يفرضون علينا العبودية، ويمنون بها علينا"[15]، فعمدت إلى سياسة الاحتقار ومارستها على الشعب وسلبت مكانته واعتزازه بمقوماته وهويته، وجردته من أسباب القوة والحياة، وروضته على الذل حتى يطمئن إليها، ويعتقد أنه كذلك خلق، أو لذلك خلق.

وتعدّدت أساليب الاحتقار لتصل لفرض الرقابة على كلّ مناحي الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية، والتعليمية ففرنسا العلمانية هناك، كانت تقول للجزائري هنا: "أنا أحق منك بالتصرّف في دينك، فلا تدخل المسجد إلا بإذني ولا تُصَلِّ إلا من وراء إمامي

ولا تحجّ إلا برخصتي، ولا تصُمْ إلا على رؤيتي، ولا تزكّ إلا بعد استشارتي، ولا تضع زكاتك إلا حيث أريد لا حيث تريد"[16]. وفي مجال التعليم الذي يعد رافدا مهما من روافد تقوية الهوية والانتماء، كانت الإدارة الاستعمارية تقول للجزائري "لا أَعَلمّك لأنني أحتقرك وأبغضك، ولا أدَعُك تتعلّم وحدك، لأنني أحتقرك وأبغضك، ولا أدعك تعينني لأنني أحتقرك وأبغضك"[17].

والحاصل هو أن "الاحتقار هو الأساس الذي بنى عليه الاستعمار تربيته وتعليمه وحكمه، وقد أصبح خلقًا ذاتيًّا في أبنائه وأنصاره وحكّامه، لا يستطيعون الانفكاك عنه لأنه جزء من وجودهم، ومادة لحياتهم، ثم غمره البغض فأصبحا عنصرين مكوّنين لشيء موجود هو هذا الظلم. وإنّ الاحتقار والبغض هما اللذان رفعا الحصانة عن ديننا وأموالنا وأعراضنا وأبداننا"[18]. وما يُؤسف له – بحسب تعبير الإبراهيمي– هو ذلك الركون والمرض العضال الذي أصاب الأمة،فاستكانت ورضخت،وكأنّ القدر محتوم، فمن خلال استعراضه لحالة العالم الإسلامي توصل الشيخ إلى نتيجة مفادها أنّ" العلة واحدة والأحوال متشابهة ... جمود وخمود وركود، جمود في فهم الحياة، وخمود في القوى السائقة إلى الحياة ... وتجردنا جميعًا من فضائل الشجاعة والغيرة على الحمى، والحفاظ والغضب للعرض وحماية الحقيقة ورضانا جميعًا بالذل والضيم والمهانة والتعبّد للأجنبي، والخضوع له في كلّ شيء"[19].

وأخطر جانب عمل المستعمر على إذكائه وتقويته كلما خمد، هو ذاك الجانب المتعلق بالحيلولة دون اتحاد الكلمة والجهود في العالم العربي، من منطلق أنّه كان يعلم أنّ الوحدة خطر علي ديمومته وعرقلة لمشاريعه، وأنه في الفرقة كلّ قطر لقمة سائغة يمكن الاستفراد بها "حتّى أصبح بعضنا لبعض عدوًا، والتخريب لضمائرنا حتّى أصبحت خيانة الدين والوطن بيننا مَحْمَدَةً نتمادح بها، والتمزيق لجامعتنا حتى أصبحنا أممًا متنابذة نتعادى لإرضائه ونتمادى في العداوة بإغوائه ... والتعقيم لعقولنا وأفكارنا حتّى أصبحنا نتنازل عن عقلنا لعقله وإن كان مأفونًا، وعن فكرنا لفكره وإن كان مجنونًا، وتلقيح فضائلنا برذائله حتّى انحطّت فينا القيم المعنوية، وبخست موازين الفضيلة عندنا، وأخيرًا ترويضنا على المهانة حتّى

أصبحنا نهزأ بماضينا افتتانًا بحاضره، ونسخر من رجالنا الذين سادوا العالَم وساسوه بالعدل إعجابًا برجاله، وننسى تاريخنا لنحفظ تاريخه، ونحتقر لساننا احترامًا للسانه"[20].

- **شروط النهضة المنشودة:**

استشعر البشير الإبراهيمي حالة الوهن والركود التي تمر بها الأمة، وعبر عنها قائلا: "وها نحن أولاء لا شعور ولا إحساس تمر الحوادث بنا تباعا فلا نعتبر ولا نزدجر، ويسير العالم بما فيه سيره إلى الأمام ونحن في موقف لا نتبين فيه موقع أقدامنا. فكأنّ القطعة التي نحن عليها من هذه الأرض واقفة لا تتحرك أو كأن الأمم كلها ورثت من الأرض التحرك إلا نحن ... غفلنا عن أخذ الأبهة للتزاحم الاقتصادي فأدركنا سيله الجارف وسدّت علينا منافذ الحياة وشتان ما بين الكسلان والعامل"[21].

انطلاقا من هذا التشخيص الدقيق للواقع ينطلق الإبراهيمي في تقديم رؤيته للخروج من حالة الركود، منطلقا من ضرورة العودة إلى لمّ الشمل والعمل على تقوية اجتماع حيوي منتج يقوم على ردّ الاعتبار لـ:

– **الدين:** من خلال السعي إلى إعادة تقريب حقائقه إلى الأذهان والابتعاد عن مظاهر الغلو فالإسلام دين عملي لا تستغرق معرفة أحكامه هذه العشرات من السنين التي يبدّدها طلاب العلم الديني منا ... وأنّ الأنسب لسماحة الدين وبقائه وصلاحيته لكلّ زمان ومكان أن يكون للزمان والمكان والعرف والعادة والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات وتطبيقها على الحوادث الجارية ... وهذا ما تبينه المادة 69 من القانون الداخلي لجمعية العلماء المسلمين، والتي جاء فيها: "نبدأ بإصلاح العقيدة مثلا. والعقيدة الحقّة لها ميزان دقيق وهو الكتاب والسنّة، فإذا عرضنا كثر عقائد الناس على ذلك الميزان وجدناها طائشة فأيّ سبيل نسلكه لتقويمها إن اقتصرنا على بيان العقيدة الصحيحة واجتهدنا في إقامة الأدلّة، فإنّ التأثير يكون قليلا لأنّ النفوس قد اصطبغت بعوائد وتقاليد مستحكمة والفِطر قد فسدت بما لابَسَها من خرافات وأوهام[*].فالواجب إذن أن نبدأ بمحاربة تلك البدع

والخرافات بطرق حكيمة تقرّب من أذواق الناس، فإذا ماتت البدع والخرافات وصَفَت الفِطر من ذلك الشوب سَهُلَ تلقين العقيدة الصحيحة وتلقّتها النفوس بالقبول"[22].

– **الأخلاق**: يعتبر الإبراهيمي أنّ الأخلاق هي أول ما فسد، وبالتالي هي أول ما يجب إصلاحه إن أردنا إحقاق الوعي والنهضة، فيجب رفع درجة الأخلاق، بالرجوع إلى مصادرها؛ الأخلاق الإسلامية المستقاة من القرآن، والأخلاق العربية المأخوذة من التراث.

– **العلم**: والعلم الذي يدعو إليه الشيخ البشير هو العلم القائم على الاستدلال وعدم تقبل الآراء جزافا، على طريقة الأوائل أين كان التلقين سيد الموقف، الأمر الذي انجرت عنه مخاطر كبيرة ساهمت في التمكين للخرافات والأحاديث الموضوعة والمبالغات السخيفة والآراء المضطربة ... ثم انتقلت هذه النزعة إلى مجالس العلم فسيطرت عليها وفتكت بعقول المعلمين والمتعلمين، وكان من آثارها هذا الارتخاء الذي نشاهده في ملكاتنا العلمية وهذا الفتور المستحكم الذي استحال إلى انحطاط وتَدَلٍّ في العلم[23].

ومن هنا يرى أن النهضة العلمية لا يكتب لها النجاح ما لم تتخذ من الاستدلال منهجا لطلب العلم. مع العمل على إصلاح نقائصنا المتّصلة بحالتنا العلمية، والتي تكمن عندنا في إحجام طلاب العلم عن الأخذ بأسبابه، نتيجة لضعف الميل إلى التخصّص، وضعف الميل إلى الابتكار، والكسل عن المطالعة[24].

– **المال**: لا ينكر أحد أهمية المال ودوره في دفع عجلة التنمية والرقي بين الأمم، وفي الفترة التي تحدث فيها البشير الإبراهيمي لم يكن هناك سيولة مالية كافية لتحقيق استثمارات واسعة، كما لم تكن الظروف آنذاك تسمح بهكذا مبادرات، ورغم ذلك يدعو الشيخ إلى "واجب الاحتفاظ بما هو موجود، وواجب استثمار الموجود حتى ينمو. وفق أساليب عصرية جديدة تتكيّف مع أنماط الاستثمار الحديث ولا تعتمد على نفس الآليات التي ورثناها عن الأجداد، لأن ميدان الاستثمار ميدان يؤمن بالتجديد والمنافسة وليس من الحكمة أن نقف في الاستثمار عند طرائق الآباء والأجداد"[25].

– **إحياء اللغة العربية**: لكونها لسان أمة شغلت حيّزًا من التاريخ بفطرتها وآدابها وأخلاقها وحكمها وأطوارها وتصاريفها في الحياة، ودولها في الدول، وخيالها اللامع الخاطف الذي هو أساس فنّها وآرائها في عالمي الكون والفساد. وكلّكم يعلم أن هذا اللسان ضاع من بيننا فأضعنا بضياعه كل ذلك التراث الغالي النفيس من دين وتاريخ، وأن اللغة هي المقوّم الأكبر من مقوّمات الاجتماع البشري، وما من أمة أضاعت لغتها إلا وأضاعت وجودها، واستتبع ضياع اللغة ضياع المقوّمات الأخرى[26].

- **دفاع البشير الإبراهيمي عن إنسانية الإسلام**

وقف البشير الإبراهيمي بالمرصاد للدفاع عن إنسانية الرسالة الإسلامية مسترسلا في الرد على خصومها، الذين انطلقوا حسب رأيه من فكرة منحازة، لا ترى في الإسلام إلاّ النقص والقصور. يقول الشيخ: "يرى كثير من الباحثين الغربيين في شرائع الإسلام أنه شرّع الاسترقاق ومكن له وحماه، وجعله كلمة باقية في أتباعه، وأبقاه سمة مميزة له، حتى إنه كلما ذكروا الإسلام ذكروا معه الاسترقاق كنقيصة اختص بها"[27]. ثم يضيف "وإنما يصدرون عن أهواء غالبة، وأحقاد دفينة وتعصب موروث، يرثون كل ذلك عن سلفهم من رجال الكنيسة وفلول الحروب الصليبية، وعن التصويرات التبشيرية العصرية التي يخططها أئمة الكهنوت وينفق عليها المهوسون من أتباعهم، وتحميها الدول الاستعمارية بالجيوش والأساطيل"[28].

وهذه الآراء تدلّ في نظر الشيخ على"القصور في الاستقراء والعقم في الاستنتاج والسطحية في التفكير"[29]. فالتعميمات التي توصل إليها أصحابها وحاربوا من خلالها رسالة الإسلام، كانت نتيجة لخلط في الاستنتاجات، فهم (الباحثين الغربيين) "يحكمون على الإسلام بأعمال المسلمين وأحوالهم المخالفة له، يتوصلوا إلى غرضهم في تنقص الإسلام والإزراء عليه والحط منه ولا يريدون أن يفهموا أنّ الإسلام شيء، وأنّ المسلمين شيء آخر، ولو فهموا هذا لفهموا معه أن المسلمين لو أقاموا دينهم ومشوا على صراطه السوي لما طمع الغربيون من أوطانهم في قلامة ظفر، ولما ظفر هؤلاء الباحثون الحاقدون بثغرة يدخلون إليهم أو ينفذون إلى دينهم منها"[30].

ينطلق الشيخ من فكرة أساسية وهي أن الإسلام "دين التحرير العام"، لأن الإسلام لا يفهم التحرير بالمعنى الضيق، وإنما يفهمه على أنه كل إطلاق من تقييد، أو تعديل لوضع منحرف ومن جملة ذلك أنه:

– **حرر العقل**: باعتباره القوة المميزة للصلاح والفساد والشر والخير والنفع والضر، فإدراك الحقائق العليا في الدين والكون بحسب محمد البشير الإبراهيمي، إنما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسدّدة.

– **حرّر التعاملات** بين الأفراد وشرّع لها قوانينها الضابطة؛ فحدّ الحدود بين المرأة والرجل وبين المحكوم والحاكم وبين الفقير والغني، وبين العبيد والسادة، وبين العمال وأصحاب المال يفصل الشيخ هذه الرؤية قائلا: "فأما تحرير المحكومين من الحاكمين، فلا مطمع أن يأتي فيه على وجه الدهر ما جاء به الإسلام من شرائع العدل والإحسان والشورى والرفق والرحمة وعدم المحاباة حتى في النظرة والكلمة والمجلس"[31].

– **حرر الإسلام** الفقير من الغني، فجعل للفقراء حقا معلوما في الأموال، ووجه التحرير هنا أنّ الفقير كان يسأل الغني فيعطيه أو يحرمه. ولكن الإسلام ألزم الغني بدفع الزكاة للفقير وسماها حقا معلوما، وتسمية هذا المال حقا (...) رفع عن الفقير غضاضة الاستجداء ومهانة السؤال[32].

– **حرر الإسلام** المرأة من ظلم الرجال وتحكمهم، فقد كانت المرأة في العالم كله في منزلة بين الحيوانية والإنسانية بل هي إلى الحيوانية أقرب.

وبيّن بالبرهان تهافت الآراء المشككة في رسالة الإسلام ومعاداته للحرية، قائلا: "الإسلام لم يخترع الاسترقاق ولم ينشئه، وإنما وجده فاشيا في العالم، درجت عليه الأمم كلها من أحقاب قديمة متطاولة. ودخل في حياتهم وتمكن ونزل منها منزلة الضرورات الحيوية، وتعوّده الفريقان السادة والعبيد، وبني كل واحد منهما أمره على ما قسم له من الأعمال ... فأصبح الخروج عنها كالخروج من الحياة، ولكل من السيادة والعبودية آثار متطرفة في نفوس أصحابها لا يجمعها وسط، فالسادة تعودوا الاعتماد على العبيد في

تصريف مصالحهم الحيوية المتنوعة، شريفها وخسيسها من منزلية وفلاحية، فإذا فارقهم العبيد ضاعت تلك المصالح كلها إذ لا يستطيع القيام بها بنفسه، فضاعت المصالح فاختل التوازن الاجتماعي، والعبيد تعودوا الاعتماد على السادة، في معاشهم وكسوتهم وتدبير ضرورياتهم كلها، فإذا فارقوهم وتحرروا دفعة واحدة لم يستطيعوا الاستقلال بالحياة، واختل التوازن الاجتماعي أيضا"[33].

– الإسلام وأخلاقيات الحرب:

ينطلق الشيخ من فكرة مركزية فحواها أن: "الإسلام يعتبر السلم هو القاعدة، والحرب شذوذ في القاعدة، لأن الإسلام دين عدل ورحمة وعمران وعصمة في ما يسميه علماء الإسلام بالكليات الخمس وهي الدين والعقل والعرض والمال والنسب"[34]. فإذا انهارت هذه الكليات ارتكست الإنسانية وتردت إلى الحيوانية. ومن هنا تصبح مشروعية الحرب في الإسلام مرتبطة بغاياتها، فالحرب مفسدة لا ترتكب إلا لدفع مفسدة أعظم. أما القتال المرتبط بحب التسلط واستغلال الغالب لوطن المغلوب، فليست له غايات إنسانية.

أما ما جاء به الإسلام وسماه الجهاد وهو قتال المعارضين لدعوته، الواقفين في سبيلها بعد تبليغهم الدعوة وتمكينهم من النظر فيها بالعقل والروية، وإنظارهم إلى المدة الكافية لذلك، فان لم يقبلوها بعد ذلك ولم يقفوا في طريقها تركوا وشأنهم، ولا إكراه في دين الإسلام بالنص القرآني القاطع "فالدماء في الإسلام محترمة معصومة إلا بحقها وليست عصمة الدماء خاصة بالمسلمين في حكم الإسلام، بل مثلهم في ذلك ثلاث أصناف من الكتابيين، وهم الذميون الذين استقروا في دار الإسلام وفي ذمته، والمعاهدون الذين استقروا فيها بعهد محدد بأجل، والمستأمنون وهم كل من دخلها بأمان مؤجل أو غير مؤجل، فهذه الأصناف دماؤهم معصومة كدماء المسلمين، ولا يجوز للحاكم كيفما كانت سلطته أن يستبيح دم أحدهم إلا بحقه"[35].

وإنما الواجب في الإسلام التبليغ والبيان، وإن لم يقبلوا دعوة الإسلام ووقفوا في طريقها يصدون الناس عنها بالتحريض، وجب في حكم الإسلام قتالهم وقتل المقاتلة منهم فقط، أو أسرهم وسبي النساء والذراري واسترقاقهم، فهذا هو شرط الاسترقاق في الإسلام.

وهنا ينبه الشيخ إلى مسألة في غاية الأهمية وهي: "أن القتال لم يشرع في القرآن بصيغة شرع أو وجب أو غيرهما من صيغ الأحكام، وإنما جاءت الآية الأولى فيه بصيغة الإذن المشعرة، بأنه شيء معتاد في الاجتماع البشري، ولكنه ليس خيرًا محضًا ولا صلاحًا سرمدًا وإنما هو شر أحسن حالاته أن يدفع شرًا آخر. قال تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ**﴾"[36]. يشرح الشيخ مدلول الآية قائلا: "ففي قوله تعالى: "يقاتلون "وفي قوله "بأنهم ظلموا". وفي قوله: "الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق "بيان للشروط المسوّغة للحرب في الإسلام. تربطها وتحدد أولها وآخرها، وتخفف من شرورها، وتكبح النفوس على الاندفاع فيها إلى الخروج عن الاعتدال وتعدي الحدود[37]

من هنا يرى الشيخ أنه "ولو لم يكن من مظاهر العدل في الإسلام إلا بقوانينه الحربية لكان فيها مقنع للمنصفين باعتناقه. ذلك أن الحرب تنشأ عادة من العدوات والمنافسات على المصالح المادية... فجاء الإسلام بتعاليمه السامية، المهذبة للفطرة المشذبة للحيوانية فحددت أسباب الحرب وأعمالها تحديداً دقيقاً، وحرمت البغي والعدوان، وقيدتها بقوانين هي خلاصة العدل ولبابه"[38].

– موقف الشيخ من قضية حقوق المرأة:

كانت ولا تزال إشكالية حقوق المرأة من بين الإشكاليات التي تأثر بها الفكر العربي الإسلامي الحديث والمعاصر، وحاول جاهدا أن ينسج حلولها على نمط فيه الكثير من الانبطاحية التي تجاري الأطروحات الغربية، والواقع يشهد كما يقول الشيخ أن: "المرأة كانت في العالم كله في منزلة بين الحيوانية والإنسانية، بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكم فيها

أهواء الرجال، وتتصرف فيها الاعتبارات العادية المجردة من العقل، فهي حينًا متاع يُتَخطف وهي تارة كرة تتلقف، تعتبر أداة للنسل أو مطية للشهوات، وعليه فعندما يتدخل علماء الغرب في موضوع المرأة في الإسلام فإنهم يجعلون منه ذريعة للنيل من الإسلام[39].

وهنا يذكر الشيخ مناظراته لعلماء الغرب حول هذه المسألة، مبينا كيف أفحمهم بالحجة والدليل مظهرا جهلهم بالإسلام وأصوله قائلا: "ولقد ناظرنا جماعة منهم في الموضوع، فأفحمناهم وألقمناهم حجرا ... وكأنهم كانوا لا يعرفون إلا أنّ المرأة مظلومة في القرآن الذي يقول "للذكر مثل حظ الأنثيين". فقال لنا أحدهم: نعني ميراث البنت مع أخيها، فقلت: أنتم قوم تبتون الحياة كلها على الحساب فهلم "نتحاسب"، ولنفترض أن موَرثاً مسلماً مات وترك ابناً وبنتاً وثلاثمائة نقدا، قال الإسلام للابن مائتان، وللبنت مائة فقلتم، هذا ظلم ... ولم تفهموا أن الإسلام نظر إلى المرأة ككل، ونظر إلى مراحل حياتها الثلاث كمنظومة متناسقة، فإذا نقص لها في جزئية، جبر لها جزئية أخرى، ولنجر معكم على مثالنا ولا نخرج عنه، ولنفرض أن الأخوين الذكر والأنثى تزوجا في يوم واحد، وليس لهما من المال إلا ذلك الميراث، فالذكر يدفع لزوجته مائة صداقا، فيسمى بمائة واحدة وأخته تأخذ من زوجها مائة صداقا فتصبح ذات مائتين والذكر مطلوب بالإنفاق على نفسه وزوجته وأولاده إن ولد، وأخته لا تنفق شيئا على نفسها ولا على أولادها[40]، فهذا هو الميزان العادل في الإسلام.

– مغالطة خطاب الحرية في الفكر الغربي:

وهي مسألة تنبه لها الشيخ وكشف زيف الادعاءات الغربية المنادية بإلغاء الاسترقاق قائلا: "قد يكون كلامهم في إلغاء الاسترقاق صحيحا ومعقولا عند الناس، لو لم تقرنوه بجريمة الاستعمار في آن واحد، فلم تزيدوا على أن سفهتم أنفسكم ونقضتم قولكم بفعلكم ... من الذي يصدقكم في تحرير الآلاف من العبيد، بعد أن استعبدتم مكانهم مئات الملايين؟ فكأنكم ما وضعتم ذلك القانون إلا تلهية للعالم وتغطية عن الجريمة التي ارتكبتموها، وكأنكم ما رضيتم للشعوب الضعيفة أن تسترق أفرادا، فألغيتم ذلك النوع

الفردي، وأبدلتموه بالاسترقاق الجماعي. ثم يضيف: "واذكروا ما هو محسوب عليكم وعلى حضارتكم من المتناقضات الشنيعة، وأشنعها أنكم استعبدتم شعوب إفريقيا كلهم، نساءها ورجالها وأطفالها أبشع استبعاد وقع في التاريخ[41].

– في معنى التحرير:

إنّ التحرير الشامل لا يتأتى في نظر الشيخ إلا بإصلاح شامل لنقائص البشرية الموروثة، بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها وبناء للحياة السعيدة التي لا يظلم فيها البشر ولا يهضم له حق على أساس من الحب والعدل والإحسان، والقرآن هو الدستور السماوي الذي لا نقص فيه ولا خلل: فالعقائد فيه صافية والعبادات خالصة والأحكام عادلة والآداب قويمة، والأخلاق مستقيمة، والروح لا يهضم لها فيه حق والجسم لا يضيع له مطلب هذا هو القرآن، الذي صلح عليه أول هذه الأمة، وهو الذي لا يصلح آخرها إلا عليه ... فإذا كانت الأمة شاعرة بسوء حالها، جادة في إصلاحه، فما عليها إلا أن تعود إلى كتاب ربها فتحكّمه في نفسها وتحكم به، وتسير على ضوئه وتعمل بمبادئه وأحكامه. فكيف يشقى المسلمون وعندهم القرآن الذي أسعد سلفهم؟ أم كيف يتفرقون ويضلون وعندهم الكتاب الذي جمع أولهم على التقوى؟ فلو أنهم اتبعوا القرآن لما سخر منهم الزمان وأنزلهم منزلة الضعة والهوان، ولكن الأولين آمنوا فأمنوا، واتبعوا فارتفعوا ونحن فقد آمنا إيمانا معلولا، واتبعنا إتباعا مدخولا وكلٌ يجني عواقب ما زرع [42].

خاتمة:

إن الدعوة الإصلاحية التي تبناها البشير الإبراهيمي ترتكز على علم بحال الجزائريين وآمالهم وآلامهم، وتطلعاتهم نحو صباح جديد، تشرق فيه شمس الحرية عليهم[43]. وفي ذلك يقول الإبراهيمي: "مبدأ جمعية العلماء يرمي إلى غاية جليلة، فالمبدأ هو العلم والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرها قسمان: تحرير العقول والأرواح وتحرير الأبدان والأوطان والأول أصل الثاني، فإذا لم تتحرر العقول والأرواح من الأوهام في الدين وفي الدنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية، والأوطان من الاحتلال متعذرا أو متعسرا"[44].

وفي الأخير نختم بالقول ان استدعاء البشير الإبراهيمي اليوم ليس من باب الرغبة في إعادة بعثه بيننا اليوم، من أجل أن يفكر من أجلنا لحل مشاكل يطرحها واقعنا المعاصر وهي ولا شك مشاكل تختلف جملة وتفصيلا عماّ عايشه الشيخ في منتصف القرن 19م. بل الغرض من هذه الاستعادة يكمن في بعث روح التساؤل من جديد في فكرنا الذي يعيش خارج عجلة التاريخ المعاصر. روح نقدية ليست بالضرورة نسخة طبق الأصل لتلك الروح التي حاول الابراهيمي بثها في وقته نتيجة لتصديه لمشاغل عصره.

من هنا تصبح استعادة متون الشخصيات التراثية في تاريخها على اختلاف حقبها معلما نسترشد به لإعادة تقييم تجاربنا وخلق وعيّ خلاّق يسهم في تحقيق انطلاقة هادفة تجعل من الإنسان وتطوره هدفا ومن المراجعة والنقد والتجاوز منهجا.

الهوامش والإحالات

(1)– معصوم فؤاد، إخوان الصفا فلسفتهم وغايتهم، سوريا، دار الهدى للثقافة والنشر، ط1 1998. ص279

(2)– محمد بن المختار الشنقيطي، الخلافات السياسية بين الصحابة. الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط1، 2013. ص:64.

(3)– آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997، ص 164.

(4)– المصدر نفسه والصفحة.

(5)– المصدر نفسه، ص 165.

(6)– المصدر نفسه، ص 51

(7)– حنفي مصطفى، (إنسانية الأنوار أوخطاب العقل والحرية) تنسيق الزواوي بغوره، التنوير قسنطينة، مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، (ب ط)، ص (229، 248)

(8)– آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص 220.

(9)– المصدر نفسه، ص220،221

(10)– المصدر نفسه، ج1، ص150.

(11)– المصدر نفسه والصفحة.

(12)– المصدر نفسه والصفحة.

(13)– المصدر نفسه، ج3، ص97

(14)– المصدر نفسه، ص98

(15)– المصدر نفسه، ص99

(16)– المصدر نفسه، ص363

(17)– المصدر نفسه، ج3، ص364

(18)– المصدر نفسه والصفحة.

(19)– المصدر نفسه، ج4، ص100،101

(20)– المصدر نفسه، ص101

(21)– المصدر نفسه، ص57

(*)–كان الشيخ البشير الإبراهيمي، سبّاقا إلى التحذير من إمكانية توظيف النشء والتغرير بهم وجرهم إلى مزالق الانحراف والتوظيف المقيت، إن هم لم يتلقوا الرعاية الكافية والتعليم الديني السمح بعيدا عن تأثير التيارات والمذاهب. حيث يقول: "إذا كان الشباب لا يفهم الدين من البيت ولا من المسجد ولا من المدرسة ولا من المجتمعات، فإنّ فهم شيئًا منه في شيء منها فهمه خلافًا وشعوذة وتخريفًا، ففي أي موضع يفهم الإسلام على حقيقته طهارة وسموًا واتحادًا وقوة وعزّة وسيادة؟ إن عاملناه بالإنصاف نقول إنه معذور إن زلّ وضلّ بالانسياق مع هذه التيارات الخاطئة التي تختلف بالأسماء والمبادئ وتتفق في الغاية وهي حرب الإسلام في أبنائه لتحاربه بعد ذلك بأبنائه.

(22)– آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1، ص86.

(23)– المصدر نفسه، ص148.

(24)– المصدر نفسه، ص154.

(25)– المصدر نفسه، ص54،55.

(26)– ينظر: المصدر نفسه، ج1، 373 وما بعدها.

(27)– المصدر نفسه، ج4، ص354.

(28)– المصدر نفسه والصفحة.

(29)– المصدر نفسه، ص355.

(30)– المصدر نفسه والصفحة.

(31)– المصدر نفسه، ص359.

(32)– المصدر نفسه، ص360.

(33)– المصدر نفسه، ص364،365.

(34)– المصدر نفسه، ج5، ص94.

(35)– المرجع نفسه، ص92.

(36)– سورة الحج، الآية، 39،40.

(37)– آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج5، ص93.

(38)– المصدر نفسه والصفحة.

(39)– المصدر نفسه، ج4، ص360.

(40)– المصدر نفسه، ص362.

(41)– ينظر: المصدر نفسه، صص 369، 370.

(42)– المصدر نفسه، ص95.

(43)– معالم الفكر الإصلاحي عند الشيخ البشير الإبراهيمي، نقلا عن:
www.binbadis.net/research-and-studies/elibrahimi/352-elibrahimi.html

(44)– آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج4، ص344.